البحوث والدراسات

من الأمثال الشعبية في الكويت: دراسة بنائية بلاغية

د. حصة السيد زيد الرفاعي*

ملخص:

تتناول الدراسة الأمثال الكويتية من منظور بنيوي. وهذا الاتجاه في تحليل الأمثال هو منحى جديد في الدراسة لم يلتفت إليه سوى فئة قليلة من دارسي الفولكلور. أما في العالم العربي فلم نعثر على بحث سابق درس الأمثال من هذا الجانب. واقتصرت أغلب الدراسات على الجمع والتبويب والفهرسة. وبناء على ذلك فقد وجدنا من المهم جداً تطبيق المنهج البنيوي في تحليل الأمثال الكويتية، وتسليط الضوء على مضامينها العميقة، ودلالاتها الوظيفية، من حيث كونها تعبيراً عن حكمة المجتمع، ووسيلة مهمة في التواصل الاجتماعي بين الناس، سواء محلياً أم عربياً أم عالمياً.

وانطلاقاً من ذلك فقد عرضنا لتعريف المثل، ورصد وظيفته الاجتماعية، وأشرنا إلى أهم الدراسات التي تناولت الأمثال من جانب بنيوي، وبينا مكونات المثل، وخصائصه البلاغية، وتتبعنا ظاهرة القياس والتقابل في الأمثال، وكشفنا عن تراكيب المثل الفنية، وأشرنا إلى سمة المجاز في المثل، وتتبعنا ظاهرة الثبات والتغير في الأمثال.

وفي ضوء ما سبق خلصنا إلى أن الأمثال هي ظاهرة لغوية تتشكل وفق منظومة الأصوات والأوزان والإيقاعات. وإن أكثر سماتها وضوحاً يدور حول كونها موجزة، وذات تراكيب مزدوجة. وإن قيمة الأمثال في المجتمع تتأسس على تأثيرها البلاغي، وقدرتها على الانتقال من التجربة الخاصة إلى العمومية والتجريد، لتغدو صالحة لكل زمان ومكان.

مدخل:

اعتنى الدارسون في مجالي العلوم الإنسانية والاجتماعية بجمع الأمثال Paremiography، ودراستها Paremiology، وذلك في حقول الفولكلور، وعلم

* أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الكويت، دولة الكويت.

اللغة، والأنثروبولوجيا، وتاريخ الأدب، وعلم النفس؛ من حيث إن الأمثال تشكل ميداناً معرفياً مشتركاً بين هذه المجالات، ومن ثم استحقت اهتمام الدارسين بجمعها وتحليلها، كل من منظور تخصصه.

ومن الأمور التي استرعت اهتمام الباحثين؛ تعريف الأمثال، وتتبع تاريخ نشأتها، ورصد وظيفتها في المجتمع، علاوة على الاستدلال على الفرق بين المقولات الشائعة والأمثال. وذلك بتأكيد سمة التراثية في المثل. ووجد بعض الدارسين في الأمثال مدخلاً مهماً لدراسة المجتمع.

وتجدر الإشارة إلى أن التطور الحقيقي في دراسة الأمثال حدث مع ظهور علم جديد في أوروبا هو علم العبارة Phraseology، الذي وجد له قدماً راسخة في كل من أوروبا وأمريكا، خاصة مع صدور عدد كبير من المؤلفات التي كان أغلبها معنياً بدراسة الأمثال. وينبغي الإشارة إلى أن علم العبارة هو علم يعنى بدراسة كل أشكال العبارات الثابتة؛ تلك التي تتضمن اللهجات، و(الأكليشيهات)، والصيغ المزدوجة، والاقتباسات، وصيغ التحية، واللغة الدارجة، والأمثال. والواقع أن دراسة الأمثال تشكل مبحثاً مهماً من مباحث علم العبارة. وإن غاية المتخصصين في علم العبارة هي البحث عن نماذج عالمية تشكل الطبيعة الاصطلاحية المائزة للأفراد والجماعات. وهم يعنون كذلك برصد الحدود التعبيرية الدنيا للأمثال، مع التركيز على نطق مقاطع الجملة مثل النبر، والوصل، ومغزى المثل الدلالي، تبعاً لتعدد معانيه، وأساليب نطقه. وإذا ما كان مرددو الأمثال يشتركون في تفسير المثل وفق مفهوم أساسي واحد، على الرغم من غموض معنى المثل ودلالته على معان متعددة وغير مباشرة. وإذا ما كان المثل مألوفاً لدى السامع، ومع ذلك يكون التركيز على نطق مقاطع منه أمراً مهماً للتوضيح، مثل نبرة الصوت، والوصل، وأسلوب النطق فيما لو دلت هذه الأمور على معنى مباشر أو سخرية وتهكم. وإذا كان هنالك جمهور مستمع، أيفسر السامعون المثل بصورة متطابقة أم لا. وهكذا نجد أن دراسة الأمثال من منظور علم التعبير قد اتخذت جوانب دقيقة جداً في تفسير المثل.

أما في العالم العربي، فقد صدرت دراسات كثيرة تركز معظمها حول جمع الأمثال، وترتيبها بحسب حروف الهجاء، أو وفق مضارب الأمثال. وذكر بعض الدارسين قصصاً يفترض أن تكون السبب في نشأة المثل. وربما جرت مقارنة الأمثال بنظائرها في العالم العربي.

ولم يختلف الأمر في الكويت عما هو عليه في الدراسات العربية. وكان من أوائل المجموعات التي صدرت، (من الأمثال العامية، خالد سعود الزيد، جزآن، ١٩٦١) وهي مجموعة أمثال كويتية. و(من الأمثال الدارجة في الكويت، عبد الله النوري، ١٩٨١). ورصد فيها الباحث مناسبة إنشاء المثل. أما دراسة أحمد البشر وصفوت كمال، (الأمثال الكويتية المقارنة، أربعة أجزاء، ١٩٧٨)، فقد ارتكزت على عدد كبير من الأمثال التي جمعها البشر على مدى أربعين عاماً، وتناولها كمال بالتحليل والدراسة المقارنة. وطبق فيها المنهج التاريخي الجغرافي المعروف في علم الفولكلور. لقد رصد الباحث بعد المثل التاريخي في المدونات، وتتبع انتشار المثل جغرافياً في العالم العربي، سواء بالشكل نفسه أو بصياغات أخرى في اللهجة المحلية. ومهد كمال لدراسته بمقدمة علمية مهمة استعرض فيها أهم الدراسات التي تناولت الأمثال ماضياً وحاضراً. كما حرص على تقسيم الأمثال بحسب مضاربها، وصنفها تصنيفاً هجائياً. واختتم الدراسة بفهرس شامل للأمثال يسهل مهمة الباحثين في الاستدلال عليها. والواقع أن هذا المؤلَّف هو بحق إنجاز قيم ورائد في مجال الأمثال في العالم العربي[١].

أما هذه الدراسة، فتهدف إلى تقديم مقاربة للأمثال من منظور بنائي بلاغي، وهو توجه لم ينل ما هو جدير به من العناية في ما وقع لنا من دراسات سابقة؛ إذ توفر معظمها على الجمع والتبويب والفهرسة، دون أن يحظى المثل بتحليل

(١) إن معظم الأمثال المذكورة في سياق البحث هي مما نحفظ، أو مما تم جمعه ميدانياً عبر السنين، علاوة على استخلاص بعض منها من كتاب الأمثال الكويتية المقارنة. وهي مجموعة أمثال متداولة محلياً، ولبعضها نظائر عربية وعالمية.

كاشف عن بنيته، ومحتواه، ووظيفته وفق منظومة مصطلحية منضبطة قادرة على جلاء مناحي الإبداع فيه.

وتتناول هذه الدراسة عدداً من المحاور، تشمل:

١ – تقديم تعريف واضح يؤطر مفهوم المثل، ويبين وظائفه الاجتماعية والتواصلية. تلك التي تقوم على أساس المعالجة البنائية في هذه الدراسة.

٢ – تأسيس نظري عام للمفهوم البنائي في الدراسات الفولكلورية عامة، وفي دراسة المثل بوجه خاص.

٣ – دراسة بنائية تطبيقية للأمثال الكويتية تسلط الضوء على هذا الملمح المهم في الأمثال.

علاوة على محاور فرعية انبثقت عن المحاور الأساسية، مثل؛ استعراض مكونات المثل، وشرح ظاهرة القياس والتقابل في الأمثال، وإيضاح تركيب المثل الفني، وبيان ظاهرة المجاز في الأمثال، وتتبع تغيرات المثل، وشرح الثبات والتغير في المثل.

وانطلاقاً من أهمية الاتجاه البنائي في دراسة الأمثال، والكشف عن مضامينها العميقة، فقد وجدنا من الأهمية بمكان تطبيق هذا المعيار الجديد ليكون مسلكاً معرفياً جديداً، ربما يغري دارسي الأمثال بسلوكه في أقطار الوطن العربي.

١ – المثل: تعريفه ووظيفته الاجتماعية:

على الرغم من الدراسات الكثيرة التي تناولت الأمثال، لم يجمع الدارسون على تعريف ثابت وشامل للمثل، بل يتغير تعريف المثل تبعاً لتغير نمط دراسته، وتبدل المرحلة التاريخية التي تواكب تلك الدراسة؛ ذلك أن مسألة تعريف الأمثال قضية غير محسومة في الدراسات التي تناولت هذه الأنواع الإبداعية. من حيث إن التعاريف التي صدرت باللغتين العربية والإنجليزية ارتكزت – بالمقام الأول – على مفاهيم لغوية ترجيحية وغير ثابتة.

ولقد اعترف بعض الدارسين بعجزهم عن إيراد تعريف محدد للمثل. يقول أركر تيلر Archer Taylor: "إن من الصعب جداً إيراد تعريف واضح للأمثال.

وكل الذي يمكن قوله هو أن سمات المثل غير الواضحة تدفع الدارس إلى الحدس بأن هذا التعبير مثلي، على حين إن الآخر ليس كذلك "[٢].

ويقطع بي جي وايتنج B J Whiting كذلك بعدم إمكان تعريف المثل قائلاً: "لحسن الحظ أن تعريف الأمثال ليس أمراً مهماً، ما دمنا جميعاً نعرف ما هو المثل "[٣].

ومعلوم أن تعريف الجنس الأدبي يتغير وفقاً لتغير النظرة إلى ذلك الجنس؛ فالذي يدرس المثل من الناحية البنائية، يختلف تعريفه عمن يرصد وظيفة المثل، وهلم جرا.

ويتحدد معنى المثل من خلال استخدامه في المواقف الاجتماعية. ولذلك يفترض وجود تناسب دلالي بين معنى المثل الظاهر والمحيط الثقافي الذي يتردد فيه. وهذا لا يكون إلا من خلال جمع الأمثال ميدانياً، وتتبع أسلوب ترديدها في أثناء الأداء، ولدى عدد من الرواة. إن معاني الأمثال ليست مطلقة، بل هي نسبية، وتعبر عن مواقف محددة. وبناء عليه، تختلف أساليب تقييمها تبعاً للمناسبات التي تتداول فيها. لذلك لم يكن عجباً أن يلتفت الباحثون في مجال الفولكلور إلى قيمة دراسة المثل وتعريفه من جانب بنائي. ذلك من منطلق إدراكهم أنه إذا كان من الممكن تعريف أنواع الأدب الشعبي الأخرى من منظور بنائي، فليس هنالك ما يمنع من تعريف المثل على هذا الأساس.

وسوف نحاول في هذا البحث أن نقف وقفة موجزة ومبينة لنقدم تعريفاً للأمثال، وعرضاً تتضح من خلاله وظيفتها في المجتمع، وأساليب تداولها، وقيمتها في تعزيز التواصل الاجتماعي بين الناس، سواء في المجتمع الواحد، أو بين المجتمعات الإنسانية.

---

(٢) Archer. Taylor. (1962). The Proverb., Hatboro., Pennsylvania. Introduction.

(٣) Dundes., Alan., ' On the Structure of Proverb '., The Wisdom of Many, Essays on the Proverb., Wolfgang Mieder and Alan Dundes., Ed., The University of Wisconsin Press., 1981., pp 43-64.

المثل صيغة أدبية موجزة ابتدعها فرد ما ليعبر عن وجهة نظره في حدث مر به أو موقف اعترضه في حياته اليومية. وإن حظيت تلك الصيغة بقبول الناس تبنوها، واستخدموها للدلالة على مواقف مماثلة. وهكذا ينتقل المثل من الخاص إلى العام، ويصبح مقولة مطلقة.

ويكتسب المثل بعداً تاريخياً بالانتقال من جيل إلى جيل. كما يشيع جغرافياً عبر البلدان ليتردد في مواقف إنسانية شبيهة. فالمثل بموجب تعريف لورد راسل Lord Russell هو فطنة الفرد، وحكمة الجماعة(٤)، وعلى ذلك فإن كلاً من الإبداع الفردي والقبول الجمعي يعد عاملاً أساسياً في تشكل المثل، واستمرار تداوله.

وينبغي أن نتذكر هنا أن أبا عبيد القاسم بن سلام، المتوفى عام ٢٢٤ للهجرة، كان أول من عرّف الأمثال بأنها حكمة المجتمع(٥). وذلك في كتابه "الأمثال". وبذلك سبق تعريف راسل بعدة قرون، علاوة على اهتمام العلامة أبي الفضل أحمد الميداني، بجمع عدد كبير من الأمثال يربو على ستة آلاف مثل. ويورد الميداني في معنى المثل قول المبرد إنه مأخوذ من المثال. وهو "قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول والأصل فيه التشبيه". ويقول كذلك: "وسميت الكتاب (مجمع الأمثال)؛ لاحتوائه على عظيم ما ورد منها، وهو ستة آلاف مثل ونيف. والله أعلم بما بقي منها فإن أنفاس الناس لا يأتي عليها الحصر، ولا تنفد حتى ينفد العصر.." (٦). وبهذا التعريف الدقيق يدرك الميداني عملية إبداع المثل، وتداول الناس له، واستمرار هاتين العمليتين على مدى الزمان. ويكتشف

---

(٤) Alan Dundes., ' On the Structure of Proverb '., The Wisdom of Many, Essays on the Proverbs., Wolfgang Mieder and Alan Dundes Ed., The University of Wisconsin Press., 1981., pp43-64.

(٥) عابدين، عبدالمجيد. عباس، إحسان. (تحقيق). (١٩٥٨). فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي البكري الأونبي. الطبعة الأولى. الخرطوم. ص ٥.

(٦) الميداني، أبو الفضل أحمد النيسابوري. (١٩٧٢). مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الفكر. ط ٣. ثلاثة أجزاء. المقدمة.

أبو القاسم الزمخشري المتوفى عام ٥٣٨ للهجرة، أهمية المثل من الناحية البلاغية، ويشير إلى كونه تعبيراً موجزاً يحمل معنى عميقاً. وذلك في تعريفه الجامع للمثل، الذي يقول فيه: إن الأمثال هي " .. قصارى فصاحة العرب العرباء، وجوامع كلمها، ونوادر حكمها، وبيضة منطقها، وزبدة حوارها وبلاغتها التي أعربت بها عن القرائح السليمة، والركن البديع، إلى ذرابة اللسان، وغرابة للسن، حيث أوجزت اللفظ فأشبعت المعنى "(٧).

وبموجب تعريف محمد علي التهانوي، "المثل بفتح الميم والثاء المثلثة في الأصل بمعنى النظير. ثم نقل منه إلى القول السائر؛ أي الفاشي الممثل بمضربه وبمورده، والمراد بالمورد الحالة الأصلية التي ورد فيها الكلام، وبالمضرب الحالة المشبّهة بها التي أريد بالكلام، وهو المجاز المركّب، بل لفشو استعمال المجاز المركب بكونه على سبيل الاستعارة، سمي بالمثل. ثم إنه لا تغير ألفاظ الأمثال تذكيراً وتأنيثاً وإفراداً وتثنية وجمعاً، بل إنما ينظر إلى مورد المثل". ويقول أيضاً: "وللأمثال تأثير عجيب في الآذان، وتقرير غريب لمعانيها في الأذهان. و لكون المثل مما فيه غرابة استعير لفظه للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن عجيب، ونوع غرابة استعير لفظه للحال أو الصفة أو القصة كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾؛ أي حالهم العجيب الشأن. وكقوله: "﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي الصفة العجيبة "(٨).

المثل شأنه شأن سائر أنماط الأدب الشعبي، له وظيفة اجتماعية مهمة.

---

(٧) الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر. (١٩٦٢). المستقصى في أمثال العرب. اعتنى بتصحيحه: محمد عبد الرحمن خان. الطبعة الأولى. حيدر آباد. الهند ج ١. ص ١.

(٨) التهانوي، محمد علي. (١٩٦٦). موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم. تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم. تحقيق: د. علي دحروج. نقل النص إلى العربية: د. عبد الله الخالدي. الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناتي. الجزء الثاني. ص–ي، مكتبة لبنان. ص ص ٤٥ – ١٤٤.

وتتجلى هذه الوظيفة في تعبير المثل عن غرض تعليمي أو اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي. وربما يكون المثل تقريراً لواقع معين، أو رصداً للمتناقضات التي يشتمل عليها السلوك الإنساني؛ من حيث إن الأمثال هي صيغ مستقاة من واقع الحياة اليومية، وهي خلاصة تجارب معينة مر بها الإنسان ماضياً وحاضراً. وينظر أركر تايلور Archer Taylor إلى المثل على أنه الدليل على مشكلات الحياة. فهو يصف الموقف ويصدر حكماً، ويقدم أسلوب عمل. المثل يلخص اهتمامات الناس الخاصة والعامة مثل الحب والمال والعائلة والأصدقاء والعمل واللعب، ومعظم المشكلات الصعبة التي تواجه الإنسان في حياته اليومية. الأمثال هي صيغ مختصرة للتواصل الاجتماعي، وتتضمن مقولات جاهزة متعارفاً عليها اجتماعياً وثقافياً. وهذه المقولات يمكن أن تستخدم في التعبير عن وجهة نظر معينة ربما لا يكون لها تأثير كبير في لغة الحديث العادية؛ من حيث إن المثل يختزل الطريق في التعبير عن وجهة نظر القائل، سواء أكان ذلك بأسلوب مباشر أم مجازي. المثل وسيلة للتعبير عن حكمة المجتمع وقيمه، وله غرض تحذيري من حيث استخدامه للتحذير من ارتكاب عمل محظور، وتحمل بعض الأمثال معاني متناقضة تتغير تبعاً لتغير المواقف ووجهات النظر(٩).

وتكمن قيمة المثل في كونه أسلوباً مختصراً لاستعراض التفاعل الاجتماعي بين الناس من خلال مقولات جاهزة تحمل أفكاراً مقبولة اجتماعياً. وخلافاً للمقولات الشفهية الأخرى، لم تفقد الأمثال تأثيرها وفائدتها في المجتمعات المعاصرة؛ من حيث كونها وسيلة مهمة يستخدمها الناس للتعبير عن غاياتهم سواء في التخاطب الشفهي، أو الصيغ المكتوبة؛ إذ إن الأمثال تختزل مقولات طويلة في حكمة موجزة ذات دلالات عميقة. وعلى الرغم من أن استخدام الأمثال يختلف من فرد إلى آخر، ومن جماعة إلى أخرى، فإن الأمثال تشكل قوة بلاغية مؤثرة في أنماط التفاعل الاجتماعي، مثلاً في أحاديث الأصدقاء، وأنواع الخطب السياسية، والاجتماعية، والدينية. وتتداخل الأمثال مع

(٩) The Proverb.

الشعر والقصص وأنواع الوسائط الجماهيرية. ويؤكد هذا الأمر حقيقة وجود الأمثال في كل زمان ومكان. وعلى ذلك فإن انتشار الأمثال وحضورها الدائم هو سبب رئيس في اعتناء الباحثين بجمعها وتحليلها، كل وفق طبيعة تخصصه. وأدى اهتمام الباحثين بالأمثال إلى صدور مجموعات كثيرة من القواميس التي تضمنت نظائر من الأمثال العالمية تعكس عراقة المثل، وقدرته على الانتشار عبر الزمان والمكان. علاوة على دراسات أخرى تناولت الأمثال في ضوء ما صدر من نظريات علمية طبقها الباحثون على دراسة هذا النمط الشعبي، ليس بسبب كونه تراكماً لخبرات ماضية فحسب، بل؛ لأنه لون إبداعي متجدد، ومرآة عاكسة لفلسفة الحياة اليومية. وتكتسب الأمثال صفة الاستمرار؛ لأنها تعمل على تأسيس القاعدة التي تنطلق منها الأفعال. وعلى ذلك لا يستمر المثل بسبب شكله البلاغي المؤثر فحسب، بل لقدرته الهائلة على تشكيل المواقف والأفعال، لتصبح جزءاً من حكمة المجتمع. تلك الحكمة التي تجعل التعايش الاجتماعي أمراً محتملاً؛ من حيث إن الناس يستطيعون التفاعل بعضهم مع بعض حين يشتركون في إيجاد قوانين عامة للعيش. وتعتمد قيمة الأمثال – من حيث كونها أداة لتناقل الحكمة والقواعد المرعية – على تأثيرها البلاغي شكلاً ووظيفة. ويتضح ذلك من خلال عاملين أساسيين؛ يتصل الأول منهما بمرونة محيط المثل الاجتماعي؛ إذ إن كثيراً من الأمثال يبدو في شكله التعبيري الظاهر مرتبطاً بثقافة معينة. ومع ذلك تتسع رقعة تداوله وظيفياً إلى مدى بعيد وغير محدود. إن المثل القائل: "ما كل ما يلمع ذهب"، هو دون شك نتاج صالح لكل زمان ومكان. أما العامل الثاني فهو استخدام الأمثال ذات المعاني المتناقضة؛ من حيث إن بعض الأمثال تحمل معاني متعارضة تتغير تبعاً لتغير المواقف ووجهات النظر. وعلى الرغم من أن تلك الأمثال تبدو – للوهلة الأولى – متناقضة، فإن انعكاساتها تحقق درجة عالية من التوافق؛ ذلك أنها تقدم حلولاً مثلى لنوازع الإنسان المختلفة. ويتضح ذلك في المثل القائل: "لي بغيت تصير عزيز موت والا تغيب"، الذي يتعارض مع المثل: "بعيد عن العين بعيد عن القلب". ومع ذلك يعبر كل منهما عن حالة القائل النفسية.

وتبقى مسألة مهمة على الدارس إدراكها كي يحقق الهدف المنشود من دراسته. وهي ضرورة التمييز بين المثل والمقولات الشبيهة بالمثل. وهذا لا يكون إلا بوجود معايير معينة يقاس على أساسها الفرق بين النوعين. وأهم هذه المعايير معيار التراثية، فالمثل مقولة تراثية(١٠). ومعنى هذا أن المثل كسائر الأنماط الشعبية، يجب أن يخضع لمقاييس الأدب الشعبي، التي تتلخص في كونه إبداعاً ذاتياً يتقبله الناس، ويتداولون استخدامه، ويخضع في أثناء تناقله للتعديل بالحذف والإضافة. وعلى الرغم من أن الأمثال أكثر أنواع الأدب اختزالاً؛ فهي ليس بالضرورة أبسطها مضموناً. إنها تحقق حاجة الإنسان إلى تلخيص ملاحظاته وتجاربه اليومية في سجل من الحكمة، تلك التي تزوده بمقولات جاهزة عن العلاقات الشخصية والقضايا الاجتماعية؛ إذ إن هنالك أمثالاً لكل منحى من مناحي الحياة.

٢ – الرؤية البنائية في تحليل المثل:

يطرح المنهج البنائي منظوراً متميزاً في دراسة الأمثال. فإن كانت المقاربات السابقة تهتم في المقام الأول بالجمع، والتصنيف، والتبويب، والفهرسة، فإن غاية المقاربة البنائية هي التغلغل في تضاعيف الأمثال، واستخراج تراكيبها الجوهرية الثابتة. تلك التي تشكل مكنوناتها الخفية، وسماتها الثابتة. وهذا التوجه يتطلب استخدام أدوات خاصة تعين الباحث على تحقيق غايته المأمولة. إن تحليل الأمثال لُغوياً من شأنه أن يكسبها خصوصية مائزة؛ ذلك أن دراسة المثل من الجانب الوظيفي ربما تجعله يتداخل مع أنواع شعبية أخرى. مثلاً كون المثل ذا غرض وعظي أو تحذيري يوجد أرضاً مشتركة بينه وبين الحكاية التي ربما تكون لها الوظيفة نفسها. علاوة على أن الدراسة اللغوية تقدم منحى جديداً في دراسة المثل لم يتطرق إليه سوى عدد قليل من الباحثين الغربيين. أما في العالم العربي فلم نعثر على دراسة تناولت الأمثال من

(١٠) Wolfgang., Mieder. (2012). Proverbs: A Handbook., New York., p3.

هذا الجانب المهم، اللهم إلا ملخصاً لرسالة دكتوراه تناول فيها الدارس بعض الظواهر اللغوية في كتاب "مجمع الأمثال" لأبي الفضل الميداني. ومع ذلك لم يتطرق الباحث لتحليل المثل من المنظور البنائي المعروف عالمياً(١١).

ويؤكد باحث الفولكلور وولفجانج مايدر Wolfgang Mieder أهمية تحليل المثل من الناحية البنائية؛ من حيث إن هذا التوجه يسهم في الكشف عن سمات المثل المعروفة في لغة ما، وغير القابلة للتداول، تلك التي يمكن تسميتها المثلية. ويقرر مايدر أن إخضاع الأمثال إلى أبنية أو صياغات محددة يؤدي إلى اختزال آلاف الأمثال في أية لغة في العالم إلى عدد محدود جداً. علاوة على أن دراسة المثل بنائياً تسهم في الكشف عن المثل النواة kernel(١٢). ويكون ذلك من خلال جمع تغيرات المثل واختزالها في صيغة بنائية واحدة(١٣). ويضيف مايدر قائلاً: إن المتحدث بلغة ما يستطيع الاستدلال على صيغة المثل حتى لو اكتفى القائل بذكر جزء منه. مثلاً في المثل القائل: "عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة"، يكفي أن يقول الشخص: "عصفور في اليد"، كي توضح بداية المثل

---

(١١) اليزيدي، أمين عبدالله محمد حسين. (٢٠٠٥). الخصائص الفنية في الحكم والأمثال العربية: دراسة تحليلية تطبيقية على كتاب مجمع الأمثال للميداني. ملخص رسالة دكتوراه صدرت بجامعة النيلين. السودان.

(١٢) المثل - النواة، هو مصطلح مستقى من علم اللغة؛ إذ إن المتخصصين في العلوم اللسانية استخدموا مصطلح kernel sentence الجملة النواة. والجملة النواة في علم النحو التوليدي، هي أبسط تركيب غير قابل لقواعد التحويل الاختيارية optional transformational rules لعدم قدرتها على ذلك. ويستخدم المصطلح هنا للدلالة على لباب المثل.

David Crystal. (1991). A Dictionary of Linguistics and Phonetics., Third Edition., Cambridge Massachusetts., p190.

ويوجد نظير لهذا المصطلح في علم الفولكلور هو motif. وهو العنصر المحوري غير القابل للتقسيم.

(١٣) Proverbs. A Handbook pp 1-31.

الغاية من طرحه، دونما حاجة إلى استكماله. وإن الجزء المذكور يعبر عن الغاية التي يهدف إليها المثل(١٤).

ومن أكثر الباحثين اهتماماً بدراسة الأمثال من الجانب البنائي عالم الفولكلور ألان داندس Alan Dundes، الذي يؤكد أهمية هذا الاتجاه متمثلاً بالنظرية البنائية لدى كل من ليفي شتراوس، وفلادمير بروب، يقول : إن اختلاف محتوى المثل لا يدل – بالضرورة – على اختلاف في بناء المثل الداخلي. وكما تشكل نظرية بروب أساساً واحداً لعدد من طرز الحكايات المصنفة في فهرس أرن – تومبسون، كذلك تزود نظرية شتراوس الباحث بالقاعدة التي يرتكز عليها عدد من الأساطير المعروفة لدى هنود أمريكا الجنوبية. وهكذا يتوجب على دارس الأمثال أن يبتكر نظاماً جديداً يشبه نسق بروب الوصفي المعماري، أو نظام شتراوس البنيوي(١٥). ولكي يتعرف القارئ هذين المنهجين ينبغي علينا أن نوضح أن منهج بروب يقوم على أساس الترتيب الزمني لسياق عناصر الحكاية المستمدة من الراوي. ذلك النسق الذي يضم وحدات مرتبة من (أ) إلى (ب). وتسهم هذه الوحدات في تشكيل بناء النص في منهج يصطلح عليه في علم اللغة، بالتحليل الأفقي التتابعي Syntagmatic(١٦). أما نظرية شتراوس فهي تزود الباحث بالقاعدة التي يرتكز عليها عدد من الأساطير المعروفة لدى هنود أمريكا الجنوبية. ويعتمد نظام شتراوس المسمى العلاقات الرأسية

---

(١٤) Ibid.

(١٥) الرفاعي، حصة. (٢٠٠٥). المأثورات الشعبية: النظرية والتأويل. دار المدى. سوريا. الطبعة الأولى. ص٨٠.

(١٦) مصطلح أساسي في علم اللغة ابتكره عالم اللغة السويسري فيرديناند دي سوسير. ويعني به سلسلة السمات اللغوية المتعاقبة الخاصة بالكلام. تلك التي تبدو أحياناً على هيئة سلسلة من المكونات تنتظم سياقاً رأسياً أو خطياً. ويمكن أن يستند إليها الدارس في تحديد الملامح اللغوية الخاصة بأية لغة في العالم.
A Dictionary of Linguistics and Phonetics., Third Edition., p341.

Paradigmatic على استبطان النص لاستخراج عناصره المكونة، وإعادة جمعها في سياق تحليلي أو أكثر. ويقوم هذا المنهج على التحليل الرأسي الاستبدالي(١٧).

وفي دراسة قيمة عن أهمية تحليل مضمون المادة الشعبية، يدعو داندس الباحثين إلى الاعتناء بثلاثة معايير رئيسة في الدراسة، هي: استبطان التركيبة النسيجية للمادة الشعبية texture. وهو ما يهم المتخصص في علم اللغة؛ وتحليل النص text، وهو ما يعني دارس الفولكلور؛ واكتشاف محيط النص الطبيعي من خلال دراسة النص في السياق context، ويقع هذا الأمر ضمن اختصاص الباحث في مجال الأنثروبولوجيا. ويلفت داندس نظر الباحثين إلى أن هذه المعايير ربما لا تطبق بمجملها على جميع أنواع المأثور الشعبي. ومع ذلك من الممكن أن يطبق معيار التركيبة النسيجية على المثل بصفته لوناً أدبياً. ويؤكد داندس أن تحليل الأمثال من الجوانب الثلاثة المذكورة يؤدي إلى دراسة متكاملة لهذا اللون الشعبي المهم(١٨). وتهدف دراسة نسيج المثل إلى استنباط مكونات المثل اللغوية، مثل القافية، والجناس الاستهلالي alliteration الذي يعتمد على تكرار الحرف الأول في كلمتين متجاورتين. ويصطلح بعض الدارسين على الجناس الاستهلالي في الأمثال اسم التوأمة. علاوة على ظاهرات لغوية أخرى مثل النبر stress، والارتكاز accent، والوصل junclure، واستخدام الكلمات ذات الجرس الصوتي الموحي onomatopoeia، مثل حفيف الشجر، صهيل الخيل، خرير الماء. وغير ذلك من تقنيات اللغة الشعرية التي تستخدم في صوغ المثل بصفته شكلاً أدبياً يؤلف بالفصحى والعامية على حد سواء.

---

(١٧) مصطلح مهم في علم اللغة، ويعني مجموعة من العلاقات الاستبدالية الموجودة في وحدة لغوية. تلك التي تجمع بين الوحدة اللغوية ووحدات لغوية أخرى في سياق محدد. وإن هذه الوحدات هي في الأصل مستقاة من جذر واحد.
A Dictionary of Linguistics and Phonetics.,p249.

(١٨) Alan. Dundes. (1980). Interpreting Folklore.,Indiana University Press., pp 20-32.

أما النص، فهو ترديد المثل المفرد. ويعد النص ضرورياً لاستنباط خصائص المثل اللغوية أو تركيبته البنيوية. وإذا كان من السهل ترجمة النص إلى لغات أخرى، فليس بالإمكان ترجمته مع الحفاظ على تركيبته النسيجية؛ إذ إن هذا الأمر ليس عسيراً فحسب، بل إنه أمر متعذر نظراً لتميز كل لغة بسمات خاصة لا تشاركها فيها لغة أخرى.

أما محيط النص، فهو دراسة المثل في سياقه الاجتماعي وفي أثناء الأداء، وهذه مسألة لم يلتفت إليها دارسو الفولكلور إلا في مرحلة متأخرة. والغرض من ذلك هو الكشف عن وظيفة الفولكلور في المجتمع الذي يؤدى فيه. ويكون تعرف وظيفة النص الاجتماعية أكثر دقة من خلال تتبع تلك الوظيفة في عدد من مناسبات الأداء. وعلى ذلك فإن استكشاف محيط المثل الاجتماعي هو أمر ضروري في دراسة الأمثال(١٩).

وعلى الرغم من أن داندس يؤكد صعوبة ترجمة المثل مع الاحتفاظ بصيغته اللغوية، فإن وجود بعض الأمثال العالمية ذات الصيغ الشبيهة يرجح إمكان احتفاظ النص بتركيبته اللغوية على الرغم من انتشاره، مع تغيير التسميات لتعبر عن البيئة المحلية. مثلاً: "مكة لم تبن بيوم"، "بكين لم تبن بيوم"، "موسكو لم تبن بيوم"، "روما لم تبن بيوم"، وهكذا(٢٠). ويدل هذا التشابه دلالة واضحة على عالمية بعض الأمثال، وقدرتها على تخطي حواجز اللغة معنى ومبنى. ومع ذلك يعد جمع الأمثال في اللغة الأصلية أمراً أساسياً في الكشف عن سمات المثل اللغوية، وتعرف القصة الحقيقية أو الافتراضية التي تكمن وراء ذلك المثل. ففي المثل البحري الكويتي، "من طمع طبع"، تشكل دراسة العناصر الثلاثة المذكورة – وهي: بنية المثل، ونصه، ومحيطه الاجتماعي – ضرورة لازمة في استنباط خصائص المثل اللغوية والأدبية والاجتماعية. فمن الناحية اللغوية يشتمل المثل على جناس استهلالي بين طمع/ طبع. أما قصة المثل، فيذكر

(١٩) Ibid

(٢٠) Proverbs., A handbook., pp 33-116.

الرواة: إن أحد التجار رغبة منه في تحقيق ربح أكبر، قام بتحميل سفينته ببضائع فوق طاقتها، وهو ما أدى إلى غرقها. وهكذا كان الطمع الزائد سبباً في "طبعة" السفينة أو غرقها. وتزودنا القصة التي تكمن وراء ابتداع المثل – سواء أكانت حقيقية أم افتراضية – بدوافع إنشاء المثل، واستمرار تداوله في مناسبات مختلفة، ولكنها تتفق مع القصة الأصلية في وحدة الموقف(٢١).

ومن الدارسين الذين ركزوا على دراسة الأمثال من جانب لغوي الباحثة شيرلي أورورا Shirly Arora؛ ففي مقال لها بعنوان "مفهوم المثلية – ١٩٨٤" تلفت أورورا نظر الباحثين إلى وجود خصائص أسلوبية ترتقي بالتعبير لاكتساب صفة المثل والحفاظ عليها. وتتلخص هذه الخصائص في عدد من أدوات الشعر الفنية، مثل: الجناس الاستهلالي، والتوازي، والقافية، والتوزيع التكاملي، complementary distribution(٢٢). علاوة على حذف الكلمات والاستدلال عليها بالمعنى ellipses. بالإضافة إلى وجود علامات أو سمات ضمنية تضيف إلى المثل تأثيراً بلاغياً، مثل صيغ المبالغة hyperbole، والعبارات المنطوية على تعارض ظاهري paradox(٢٣).

ومن الظواهر التي استرعت انتباه الباحثين المعنيين بالكشف عن السمات اللغوية المميزة في المثل، ظاهرة التقابل الثنائي Binary opposition، وهو

---

(٢١) الرفاعي، حصة. (١٩٨٥). أغاني البحر: دراسة فولكلورية. ذات السلاسل. الكويت. ص ١٤٨.

(٢٢) مصطلح لغوي مهم استخدم في المقام الأول في علم الأصوات، ويدل على التوزيع التكاملي بين زوجين أو أكثر من الأصوات التي ترد في محيط صوتي معين، مثل الراء المرققة في "ريح"، والمفخمة في" روح"؛ إذ هما تتكاملان في التوزيع بحسب نوع الحركة الملاصقة..كما أنه على المستوى الدلالي يعبر عن شكل من أشكال التعارض في المعنى كما في أعزب/ متزوج، فتى/ فتاة.
A Dictionary of Linguistics and Phonetics., p67.

(٢٣) Shirley L. Arora., 'The Conception of Proverbiality' Proverbium 1., 1984., pp1-38.

المصطلح الذي اقتبسه عالم اللغة إشكول ليفي شتراوس، مؤسس النظرية البنائية في علم اللغة، وطبقه في دراسة الأساطير[٢٤]. وفي استعراضنا للأمثال الكويتية، لاحظنا وجود هذه الظاهرة. وهي ترد أيضاً على هيئة تقابل معنوي بين الكبير والصغير، والقوي والضعيف. ويتضح فيها وظيفة أدوات التفضيل في تأكيد هذا التناقض. وكما يوجد التناقض بين جملتين في المثل الواحد، يلاحظ وجود تعارض معنوي بين مثلين يعبران عن فكرتين متضادتين. وسوف نناقش ذلك في معرض الحديث عن ظاهرة التقابل في الأمثال.

والواقع أن دراسة الأمثال من الجانب البنائي من شأنها أن تثري دراسة هذا النمط الأدبي المهم. ذلك من خلال الكشف عن جوانب مهمة لم يلتفت إليها الباحثون من قبل. علاوة على تقليص عدد كبير من الأمثال؛ من أية لغة في العالم، إلى عدد محدود عن طريق إخضاعها إلى أبنية أو صياغات محددة. بالإضافة إلى دراستها وفق معيار كلي يعتمد على استنباط عناصر التغير والثبات في صوغ المثل. وإن صيغة المثل الثابتة هي النواة التي لا تتغير مهما اختلفت صوره.

٣ – مكونات المثل:

يتكون المثل، بموجب بعض الدراسات، من كلمتين على الأقل تشكلان عنصراً وصفياً واحداً يتضمن موضوعاً وتعليقاً Topic and comment[٢٥]، أو جملة من مبتدأ وخبر. ويكون عبارة عن تقرير واقع، أو نصيحة عامة. وهذا النوع الموجز من الأمثال المشتمل على موضوع وصفي واحد، يعتمد في تكوينه على صيغ ثنائية يرتبط بعضها ببعض إما بجناس استهلالي وقافية، مثل: "اللي ما يطيع يضيع"، "حاميها حراميها"،"يصابح ويجابح"، وإما بقافية وجناس

(٢٤) Claude Levi. Strauss., ' The Structural Study of Myth '., Journal of American Folklore 73(1955).pp 428-444.

(٢٥) Dundes.,' Trends in Content Analysis., A Review '., Midwest Folklore 12 (1962)p 37.

ناقص: "السلف تلف"، أو بقافية: "من طق طبله قال أنا قبله"، أو بجناس ناقص: "أعمره أدمره"، "أم عابس تاكل الخضر واليابس"، كناية عن النار. وهذه الأمثال غير المتعارضة هي تعبير عن حكمة صيغت بأسلوب المجاز. علاوة على أمثال مختصرة أخرى غير مجازية، وتعتمد على تقرير واقع مثل: "العلم نور". "الأمانة هي الضمانة". "الصدق منجاة". أما الأمثال التي تتأسس على وجود عنصرين وصفيين أو أكثر، فقد تكون متعارضة، أو لا تكون كذلك(٢٦).

أما المبالغات المثلية فهي شكل آخر من أشكال صوغ الأمثال. وهي تعبر عن وظيفة شكلية تقوم على أساس المبالغة في انتقاد شخص ما أو موقف من المواقف. وعادة تصف هذه المبالغات الدرجة غير المألوفة التي يكون عليها ذلك الشخص أو ذلك الموقف. كما في المثل الكويتي: "ما يعرف كوعه من بوعه"، كناية عن شدة الغباء: "ما يدري وين الله حاطه". كناية عن عدم الإدراك.

وتشتمل بعض الأمثال على جناس ناقص وقافية: "الضرّة مرّة ولو كانت قحف جرّة"، "من طق طبله قال أنا قبله"، "دين وعماة عين"، "أم ناصر لسان طويل والحيل قاصر"، أو جناس ناقص وقافية وصيغة نفي: "ما كل مرّة تسلم الجرّة"، أو جناس ناقص وقافية: "كل ساقطة لها لاقطة"، أو تناقض ثنائي: "اللي ما يوجبك لا توجبه".

وعلى الرغم من أن بعض المجتمعات التقليدية تعقد جلسات خاصة لتداول الأمثال، فإن الأمثال عادة ما تكون جزءاً من أحاديث الناس اليومية، ولها وظيفة بلاغية. ويتم استخدام الأمثال لإقناع شخص ما بوجهة نظر معينة. ومع ذلك ربما يضرب المثل للاتفاق مع شخص آخر في وجهة النظر أو تأكيد وجهة نظر معينة. مثلاً المثل الكويتي القائل: "لو الجمل طالع حدبته كان انكسرت رقبته". وهو يعني أن الشخص الذي لديه عيب لا يحق له أن ينتقد الناس؛ إذ إنه ليس في موقع يتيح له حرية الانتقاد؛ لأنه يعاني العيب نفسه. ويشبه المثل المذكور مثلاً

---

(٢٦) Ibid.

كويتياً آخر يحمل الدلالة نفسها وهو شائع عالمياً، يقول: اللي بيته من زجاج لا يرمي الناس بالحجر. وهذا المثل قصة مكثفة ليست حقيقية، ولكن لها دلالة مجازية حين تستخدم في المناقشات. ويرسم لنا المثل صورة افتراضية لشخص يسكن في بيت مشيد من الزجاج، ولديه كم من الحجارة التي يلقيها على المارّة، وإن رد الناس عليه بإلقاء الحجر فسوف يتسبب في تدمير منزله الهش. ومغزى المثل أن الشخص الذي يكون في موضع النقد لا يملك أن ينتقد الآخرين.

٤ – القياس والتقابل في الأمثال Analogy and Opposition:

قبل مناقشة ظاهرتي القياس والتقابل في الأمثال ينبغي لنا أن نأخذ بعين الاعتبار مصطلح العالم اللغوي كينيث بايك Kenneth Pike، Identificational-contrastive features ويعني السمات التوافقية والمتعارضة في الوحدات اللغوية، مثل الرزمة الصوتية phoneme(٢٧). وأساس فكرة الفونيم هو التجريد. ويقصد بالتجريد تلك العملية الذهنية التي يمكن بوساطتها استخلاص المفاهيم المجردة من العناصر الجزئية المكونة لها. إن المتكلم للغة ما لا ينطق الفونيم بعينه كل مرة، وإنما ينطق هيئات مختلفة له مقتبسة من جزئياته(٢٨). وكذلك المورفيم والوحدات الجزئية في اللغة مثل allo التي يتضح فيها الجمع بين السمات المتوافقة والمتعارضة، مثل الحروف المجهورة والمهموسة كما في نطق الحرف P في أول الكلمة مجهوراً، وفي آخرها مهموساً(٢٩).

وفي مستهل الحديث عن ظاهرتي التوافق والتقابل في الأمثال تجدر الإشارة إلى أن هنالك ثلاثة أنواع من الأمثال، هي: الأمثال المتطابقة، الأمثال

---

(٢٧) Kenneth L. Pike. (1954). Language in Relation to a Unified Theory of the Structure of Human Behaviour., Part 1., California., p 83.

(٢٨) العاني، سلمان. (١٩٨٧). "محاضرة عن التقدم التقني في الدراسات الصوتية". كلية التربية الأساسية. الكويت.

(٢٩) المرجع السابق نفسه.

المتعارضة، والأمثال التي تجمع بين التطابق والتعارض. وقبل استعراض هذه الأنواع ينبغي لدارس المثل إدراك مسألتين مهمتين، وهما: علاقة المجاز بتركيبة المثل، والتناظر القائم بين سمات المثل الشبيهة والمتعارضة(٣٠).

واستناداً إلى ذلك فهنالك أمثال مباشرة ومتطابقة. وهي الأمثال المتضمنة عنصراً وصفياً واحداً. وهذه يمكن أن تقسم بدورها إلى: أمثال متعادلة تتفق فيها الكلمتان أ = أ: "اترك الماضي للماضي"، وأمثال مباشرة، ولكن ليس فيها شرط التعادل بين الكلمتين أ = ب: "الدراهم مراهم"، "العمل عبادة"، "الحب أعمى". أما النوع الثالث من الأمثال المباشرة فهي الأمثال التي تتخذ صيغة الشرط، وهي من يفعل كذا يفعل كذا، أو من هو كذا هو كذا. مثل: "من خاف سلم". الخوف = السلامة، "من صار أكبر صار أخبر". الكبر= الخبرة. وهنالك صيغة أخرى للتعادل في الأمثال كما في المثل، "لي حبتك عيني ما ضامك الزمن". المحبة = عدم الضيم." اللي ما يطيع يضيع". عدم الطاعة = الضياع. وهنالك نوع آخر من صيغة التعادل في الأمثال المباشرة كما في المثل: "إن وجدت الإرادة وجد الأمل". ويتضح هنا السبب أو الحافز والأثر. السبب = الأثر. الإرادة حافز، والأمل هو تأثير الإرادة. وفي المثل: "لي ريشت النملة دنا زوالها"، تريش النملة = دنو زوالها. إذ إن ظهور الريش هو نذير بالموت. والمثل المذكور صيغة مجاز، وهو كناية عن هلاك المتكبر(٣١).

وهنالك شكل آخر من أشكال بناء المثل المتساوي، وهو الذي يعتمد على إيراد سلسلة من عنصرين وصفيين أو أكثر. وهذه العناصر الوصفية غالباً ما يرتبط بعضها ببعض إما بتكرار الموضوع، وإما بتكرار التعليق، وإن هذه السلسلة من العناصر الوصفية يمكن أن تنتظم على شكل تساو طبيعي دون إخلال بالمعنى. "شفتك تحت شفتك فوق". شفتك تحت= شفتك فوق، كناية عن

---

(٣٠) On the Structure of Proverb '.

(٣١) يناقش داندس مفهومي السبب والتأثير في مقاله السابق.

عدم التغير. "محد يعاف عشاه إلا من علّة في حشاه". العلّة = العزوف عن الأكل.

وفي أغلب الأحيان تؤكد الأمثال غير المتعارضة سمات متطابقة تنتظم سلسلة من الألفاظ المتوازية. كما في المثل القائل: "قال لا تبيع رخيص قال لا توصي حريص"، "زارقني وأزارقك قال فارجني وأفارجك". ويتخذ المثلان المذكوران هيئة بيت الشعر في اعتماد كل منهما على شطرين متساويين مع وجود قافية.

أما الأمثال المتعارضة، فهي تؤكد سمات متناقضة غالباً ما تطرح في صيغة نفي، أو تتشكل من مجموعة مصطلحات ذات بناء متناقض يطلق عليه في علم اللغة مصطلح، التوزيع التكاملي كما سبق القول. وهو مصطلح لغوي ابتكره كينيث بايك، وطبقه على دراسة الحروف التي تتغير طبيعة نطقها وفقاً لموقعها في الكلمة(٣٢). وقد أفاد منه باحثو الفولكلور في الدلالة على ظاهرة التقابل في الأمثال.

وقبل استعراض ظاهرة التوزيع التكاملي في الأمثال، ينبغي الإشارة إلى أن هذا المصطلح لا يقتصر تطبيقه على دراسة المثل من الجانب الصوتي فحسب، وإنما يشمل تطبيقه الناحية الدلالية. لقد توسع الباحثون في علم الدلالة في مفهوم التوزيع التكاملي لكي يستوعب علامات التضاد، على اعتبار أن الألفاظ المتضادة تقع في مجال (الصغير والكبير) في توزيع تكاملي فيما بينها. وقد جرى تحكيم المصطلح في قياس العلاقات الدلالية أو الترادف synonymy، والعلاقات الصوتية في المشترك اللفظي polysymy.

وبتوظيف هذا المصطلح في دراسة الأمثال نستنتج أن بعض الأمثال تشتمل على ظواهر متقابلة لا تجتمع في مكان واحد؛ إذ إن وجود الأول يعني غياب الثاني والعكس صحيح. ويدل المثل القائل: "السنّور الصيّاح لا يصطاد

(٣٢) Ibid.

شيئاً"، على سمتين متعارضتين تتخذان هيئة نفي. من حيث إن السنّور الصيّاح غير قادر على اصطياد الفريسة. فإذا اشتغل بالصيد توقف عن الصياح، والعكس صحيح. إن فعلي الصياح والصيد ضدّان لا يجتمعان. ومع أن دلالة المثل المجازية واضحة، فإن المعنى الظاهر للمثل يبين لنا أن الفعلين المذكورين يتعذر القيام بهما في آن واحد. وعلى ذلك يمكن القول إن هذين الفعلين يرتبطان بعلاقة توزيع تكاملي نظراً لكون كل منهما تعبيراً عن نشاط شامل يستحوذ على طاقة الكائن، ولا يسمح بممارسة نشاط آخر إلى جانبه. وإن حضور الأول يستوجب غياب الثاني.

وتتخذ ظاهرة التوزيع التكاملي شكلاً آخر حين تحدث في بعض الأمثال التي لا تشتمل على صيغة نفي، وتعتمد على التقابل بين الحضور والغياب. كما في المثل القائل: "إن غاب القط العب يا فار". إذ يبدو التقابل بين غياب القط وحضور الفأر. والعكس صحيح. فلا شك في أن حضور الأول القوي يستوجب غياب الثاني الضعيف، وإن غياب الأول يسمح بحضور الثاني. وإن كلاً من القط والفأر في حالة توزيع تكاملي؛ إذ لا يمكن أن يوجدا معاً. ويدل المثل القائل: إذا حضرت الملائكة غابت الشياطين، على توزيع تكاملي بين حضور الملائكة الذي يؤدي إلى غياب الشياطين، والعكس صحيح. من حيث إن الملائكة لا يمكن أن توجد مع الشياطين في مكان واحد؛ لأن الملائكة رمز الخير والشياطين رمز الشر، والاثنان لا يجتمعان معاً(٣٣). ويتضح التوزيع التكاملي في المثل الكويتي القائل: "من عنده المرّ لا يشكي الضرّ". ومعنى المثل أن من يتوافر لديه دواء الأعشاب المسمى مر لا يجب أن يشكو المرض. ويتضح التوزيع التكاملي في

(٣٣) بناء على تفسير مجلس الشريعة الإسلامية للمثل المذكور، فإن الشياطين تتضرر من رؤية نور الملائكة. وبمعنى آخر إذا اجتمعت الأشعة فوق البنفسجية والأشعة الحمراء في مكان واحد فإن الأشعة الحمراء تتلاشى. وبما أن الملائكة مخلوقة من نور، والشياطين مخلوقة من نار، فهم لا يجتمعون في مكان واحد. لقد تكرم كل من الأستاذ طارق الغانم المحامي، والسيد كمال السيد بإمدادي بهذه المعلومات القيمة.

التوافر وعدم التوافر. فإذا توافر الدواء انتفى المرض، والعكس صحيح. من حيث إن الظاهرتين لا تجتمعان في وقت واحد. ويتأكد ذلك بوجود أداة النفي "لا". وفي المثل القائل: "أخذ من فقرهم وحط على غناه"، لا يجتمع الفقر والغنى معاً.

وتقع سمة التقابل الثنائي ضمن تعريف راسل للمثل، الذي سبقت الإشارة إليه. وهو أن المثل "هو خلاصة فطنة الفرد وحكمة الجماعة"، ويكون التعارض بين فطنة/ حكمة، الفرد/ الجماعة. وكذلك في تعريف سافيدرا سيرفانت Saavedra Cervantes "الأمثال هي جمل قصيرة مستقاة من تجارب طويلة". ويتضح التعارض بين جمل قصيرة/ تجارب طويلة(٣٤).

ومن الأمثال المتعارضة ما يتضمن صيغة نفي تجعل التطابق مستحيلاً. "يد وحدة ما تصفق"؛ حيث يتعارض وجود يد واحدة مع عملية التصفيق التي تحتاج إلى وجود يدين.

وفي بعض الأحيان يصاغ المثل في إطار من التطابق، ولكن محتواه يضم قدراً من السمات المتضادة. اللي ماله أول/ ماله تالي؛ حيث الاتفاق في الإطار العام للمثل والاختلاف بين أول/ تالي.

ويشبه المثل القائل: "درهم وقاية خير من قنطارعلاج"، المثل السابق في احتوائه على سمتي التوافق والتعارض؛ إذ يعكس إطار المثل العام تماثلاً واضحاً؛ من حيث وجود تعارض دلالي بين الألفاظ المزدوجة التي تنتظم سياق المثل فيما بين درهم/ قنطار، وقاية/ علاج. إذ إن الوقاية تسبق الإصابة بالمرض، وتعمل على تجنبه، على حين يبدأ العلاج بعد التعرض للمرض. وهكذا نجد تعارضاً واضحاً بين حالتي الصحة والمرض. ويتضح التعادل بين كمية الوقاية القليلة المطلوبة وهي درهم، وبين كم العلاج اللازم بعد الإصابة بالمرض وهو قنطار. وإن كمية الوقاية الزهيدة التي تمنع المرض تكون أفضل بكثير من

---

(٣٤) On the Structure of Proverb '.

كمية العلاج المكثف المطلوب للتخلص من المرض بعد فوات الأوان.. وهكذا يكون القليل المضمون أفضل من الكثير غير المضمون.

وفي هذا الصدد يقرر إليوت أورنج Elliott Oring أن التقابل بين السبب أو الحجم والأثر يزداد كثافة من خلال إيراد ثنائيات متقابلة. ويسوق أوريج مثلاً إنجليزياً شبيهاً بالمثل المذكور، كي يؤكد وجهة نظره(٣٥).

ويشبه المثل السابق باحتوائه على صيغة تفضيل أمثالاً أخرى سوف نعرض لها في أثناء الحديث عن تغيرات المثل.

ومن الأمثال الكويتية المشتملة على صيغة تعارض ونفي في بداية الجملة: "ما تضيق إلا تفرج". ويعني المثل حدوث الفرج بعد الشدة. وكذلك الأمثال القائلة: "ما يعرف اللي يسره من اللي يضره"، "ما يفرّق التمرة من الجمرة"، "ما يعرف صديقه من عدوه". وهي تعني عدم الإدراك. ويصاغ المثل الأخير في بيت شعر باللهجة الكويتية يقول:

يا الله شرّقني بريجي وراوني عدوّي من صديجي(٣٦)

وتجدر الإشارة إلى أن الأمثال ذات الطبيعة الإيقاعية المزدوجة، والتي تصاغ على هيئة بناء سياقي متعاقب، تشكل أقوى أنواع التعارض المزدوج. ونسوق هنا بعض النماذج الدالة على ذلك: "حط فلوسك بالشمس واقعد بالظل". تعارض بين الشمس/ الظل. "جامعة وفرمن"، كناية عن عدم التوافق. إذ إن الجامعة والفرمن هما من أجزاء الشراع في السفينة الكويتية القديمة، فإذا ارتفع الفرمن نزلت الجامعة، والعكس صحيح(٣٧). "عين عذاري تسقي البعيد وتخلي الجريب". كناية عن حرمان القريب، والإنعام على الغريب(٣٨).

---

(٣٥) Elliot. Oreng. (1986). Folk Group and Folk Genres., Utah State University Press., pp 175-97.

(٣٦) ريجي: ريقي. راوني: أريني. صديجي: صديقي.

(٣٧) ورد فصل كامل في كتاب أغاني البحر، عن صناعة السفن، وأنواعها، وأجزائها.

(٣٨) تقع عين عذاري في مملكة البحرين.

"بو سبيت حي لو ميت". كناية عن سوء الحال حي/ ميت، "كم مريض تعافى وكم طبيب مات". مريض/طبيب، تعافى/ مات. ويدل المثل على الإيمان بالقضاء والقدر. "يا غالي والطلب رخيص"، غالي/ رخيص، كناية عن المعزّة. "اللي ما يعدك راس مال لا تعده فايدة". رأس مال/ فائدة. ويضرب المثل في التجاهل، "الزين زين لي قعد من منامه والشين شين لي غسّل بصابون". الزين/ الشين، بينهما تقابل ظاهري. وكذلك يوجد تقابل معنوي أو ضمني بين حالة الإنسان حين ينهض من النوم، وبين شكله بعد الاغتسال. مع تكرار كلمتي زين وشين للتأكيد.

وفي بعض الأمثال يقع النفي في مستهل الجملة، وفي هذه الحالة لا يكون النفي واضحاً. ففي المثل القائل؛ "ما حطوا السلاطين إلا للشياطين"، يدل النفي على عكسه؛ حيث يفسر بأن الغاية من وجود السلاطين هو التخلص من الشياطين. وعلى ذلك فإن وجود الشياطين يسبق وجود السلاطين، ويحتوي المثل على صيغة تقديم وتأخير ضمنية.

وتستخدم صيغة النفي "ما" كذلك في الأمثال الدالة على معان مختلفة. ففي المثل الكويتي "ما تعرف أرضه من سماه" يرمز المثل إلى ضياع الشخص، وعدم معرفة مكانه. أما المثل القائل: "ما تعرف قديري لين تجرب غيري"، فيعني أن معرفة قيمة الشخص الجيد مرهونة بتجربة شخص آخر ربما يكون أقل قدرا منه. ويتفاوت استخدام صيغة النفي في الأمثال الدالة على معان مختلفة في كل من المثل القائل: "ما فيه مقز إبرة"، كناية عن الامتلاء، و"ما فيه مثلها ثنتين" دليل التميز، و"ما رضى بجزّة رضى بجزّة وخروف"، الذي يعني التنازل.

وفي المثل: "كثر الدق يفك لحام"، يكمن التقابل بين حالتي التماسك والتفكك بفعل الطرق المتكرر على الحديدة الصلبة التي التحمت أجزاؤها جيداً.

ويقع التعارض في بعض الأمثال المشتملة على (لا) الناهية؛ "قال لا تبيع رخيص، قال لا توصي حريص". "قال الكذب ينجي، قال الصدق أنجى". "قالوا

وين عاقلكم يا سعيد؟، قال مربط بالحديد". ويتضح هنا تكرار كلمة قال في السؤال والجواب، مع تعارض المضمون.

وفي بعض الأمثال تتأكد العلاقة القائمة بين تركيب المثل ودلالته باستخدام "لا" الناهية. تلك التي تتردد في الأمثال للدلالة على معنى أو رسالة مختلفة. فالمثل الكويتي القائل: "لا تبوق ولا تخاف" يدل على أن الخوف سببه السرقة. أما في المثل "لا تخاف يا عبدي ولك في السما ملبّي"، فقد دلت صيغة النهي على معنى آخر وهو التحذير من الخوف، واليأس من رحمة الله.

وفي الأمثال التي اصطلح عليها داندس السببية causal proverbs، يتخذ التقابل بين السبب والأثر هيئة ثنائيات(٣٩): "صدقة قليلة تدفع بلاء كثير". حيث يظهر التعارض بين صدقة/ بلاء، قليلة/ كثير.

ويكمن التعارض في الأمثال التي يتغير فيها سياق الأفعال الطبيعي، فيتقدم ما حقه التأخير، ويتأخر ما حقه التقديم مع وجود "لا" الناهية. ويدل على هذه الظاهرة المثل الكويتي القائل: "لا تقول حب حتى توفي قراره". والمثل حث على عدم البوح بالغلة قبل جمعها في وعاء، ثم بيعها وجني الربح.

أما الأمثال ذات العناصر الوصفية المتعددة فهي تشكل سلسلة من الموضوعات والتعليقات تنتظم سياقاً من الثنائيات المتعارضة. ففي المثل القائل: "أم ناصر لسان طويل والحيل قاصر"، يتمثل التعارض في لسان/ حيل، طويل/ قاصر. ويشتمل المثل على سجع وجناس ناقص. ويشبه المثل: "إن خلاك البين ما خلاك الكبر" تركيبة المثل السابق البنائية من حيث وجود ثنائيات متعارضة بين خلاك/ ما خلاك، البين/ الكبر. وكذلك يكون بناء المثل القائل: "يقول هلا وفي القلب بلا"؛ حيث يتعارض كل من: يقول/ في القلب، هلا/ بلا. ويضرب في النفاق.

ومن الأمثال الكويتية المتقابلة: "أعمى ويقول شفت بعيني"، "الروس

---

(٣٩) On the Structure of Proverb'.

نامت والعصاعص قامت"[٤٠]. ويعني وضع مقاليد الأمور في أيد غير مؤهلة. "روح بعيد وتعال سالم". ويعني تجنب الضرر. "طبيب يداوي الناس وهو عليل". ويقال في الاهتمام بالغير وإهمال النفس. "اللي ما عنده عتيج ما عنده يديد"، ويضرب في الوفاء. ويحمل المثل سمتي التوافق والتعارض على حد سواء؛ إذ يعكس المثل توافقاً بين كلمتي "ما عنده" وتعارضاً بين عتيق/ جديد." الزين زين لي قعد من منامه والشين شين لي غسّل بصابون". ويعتمد هذا المثل على تكرار كلمتين متجاورتين لتأكيد الفرق بين صفتي الجمال والقبح. "العبد في التفكير والرب في التدبير". ويبدو التعارض بين كلمتي العبد/الرب، التفكير/ التدبير. وهكذا يتبين لنا أن الأمثال تعكس قدراً كبيراً من التناقض لا يقل عن تناقض الحياة نفسها.

وتتضح سمة التعارض في المثل في بيت الشعر القائل:

فعش واحداً أو صل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه

ويكون التعارض في البيت المذكور بين حالتي قطع الصلة والانعزال، أو التواصل مع الآخر، وبين اقتراف الذنب أو تجنبه. ويتشكل المثل المذكور من سلسلة من الألفاظ المتقابلة. علاوة على وجود توزيع تكاملي بين حالتي العزلة والتواصل اللتين لا يمكن أن تحدثا معاً.

وتعتمد الأمثال في المقام الأول على تأثيرها البلاغي شكلاً ووظيفة. وتتخذ بعض الأمثال شكل التحذير، مثل: "اللي تلدغه الحية يخاف من الحبل". ويرد المثل بصيغة أخرى هي: "من عضه الداب لا يامن الحبل"[٤١]. وتوجد لهذا المثل نظائر عربية وعالمية. ويبدو التعارض بين الحية وهي كائن طبيعته الإيذاء، والحبل وهو جماد لا يملك القدرة على الأذى. أما التوافق فيكون في شكل الحبل

(٤٠) العصائص جمع عصعص وهو الذنب.

(٤١) النوري، عبدالله. (١٩٨١). من الأمثال الدارجة في الكويت. بيروت. الجزء الثاني. ص٥.

الذي يشبه الحية، فإذا تم تحريكه فقد يتوهم الشخص الذي سبق له التعرض للدغ الحية بأنه أفعى سوف تؤذيه ثانية. ويدل المثل على تجريد تحفيزي ومجاز[٤٢]. وهنالك متغير للمثل يقول: "لا تامن الحية لو راسها مقطوع". ويكون التحذير هنا من أذى الحية حتى لو كان رأسها مقطوعاً. ومعروف أن سم الحية يتركز في نابها. ولا يرد ذكر الحبل في سياق المثل المذكور.

ونود الإشارة إلى وجود أمثال ليس فيها تعارض لفظي أو معنوي. ولكنها عبارة عن تقرير واقع أو دلالة على حكمة مستقاة من تجربة شخصية، مثل: "الحب أعمى"، "الجنون فنون". وأمثال أخرى فيها تعارض معنوي ولكن ليس فيها مجاز؛ "خذ العلم من أفواه المجانين"، "من حفر حفرة لأخيه وقع فيها". وتعبر هذه الأمثال عن تجربة شخصية حدت بالإنسان إلى استخلاص حقيقة عامة مجردة. وهذا يؤكد لنا أن الأمثال رموز دالة على السلوك الاجتماعي. وإن دراستها من الجانب التركيبي يسهم إلى حد كبير في الكشف عن دلالاتها العميقة.

ونخلص مما سبق إلى أن الأمثال هي وصف يعرض لنا موقفاً أو صيغة فعل له علاقة بمواقف اجتماعية متكررة، وأن المشكلة المطروحة في المثل قد نشأت من قبل، وتم إيجاد حل مناسب لها. ومع ذلك لا يعني هذا أن جميع الأمثال تسهم في تقديم حلول مباشرة؛ إذ إن بعضها يدعو إلى التواكل والتسليم بالقدر مثل: "لا تبكي على اللبن المسكوب"، "هذه هي الحياة"، "لي طاعك الزمان والا طيعه".

وينبغي علينا أن نميز بين نوعين من المناسبات التي تعرض فيها الأمثال لمشكلات أخلاقية؛ الأول هو ذلك النوع الذي يستخدم فيه المثل لتوجيه نشاط مستقبلي، ونذكر في هذا الصدد المثلين: "لي طار طيرك قول سبيل"، "ابعد عن

(٤٢) Roger. Abrahams.' Proverbs and Proverbial Expressions '., Folklore and Folklife an Introduction., Richard Dorson Ed., Chicago University Press., 1972., pp117- 27.

الشر وغني له". أما النوع الثاني فهو الذي يستخدم فيه المثل ليغير موقفاً تجاه أمر ما كان قد حدث بالفعل. ولا أدل على ذلك من المثلين: "لا تودع القطو اشحمة"، "لا تامن العقرب ولا الأجنبي إذا استعرب". وفي كلتا الحالتين يضع المثل المشكلة في موقع يسهل إدراكه من خلال تقديم الحل في صيغة تراثية ساخرة.

٥ – تركيب المثل الفني:

على الرغم من سهولة رصد الأمثال، وجمعها فإنها أكثر الأنواع الشعبية غموضاً، ويرجع هذا الغموض إلى كونها مألوفة جداً. وعلى الرغم من اتسام الأمثال بالإيجاز، فإنها تتضمن أشكالاً فنية معقدة؛ ذلك أن الأمثال تستخدم كل الأدوات الفنية المعروفة في الشعر مثل الوزن، والقافية، والتراكيب المزدوجة، والعبارات المتوازنة، والسجع، والجناس الاستهلالي، والإيجاز، والمجاز، في بعض الأحيان، السياق اللفظي المعكوس، والبناء غير المألوف. ويشكل البناء اللفظي المتوازن عاملاً رئيساً في إحداث التأثير الطريف في نفس السامع. وينجم هذا التوازن في المقام الأول عن تركيبة المثل الثنائية. وعلى ذلك فالمثل يتأسس بصفة عامة على جملة منقسمة في الوسط تشبه إلى حد ما تكوين بيت الشعر. ويدعى هذا الانقسام فاصلاً[٤٣]: "تفاحة في اليوم/ تبعد الطبيب". وأحياناً يكون طول الجملة موازياً لطول الشطر في القصيدة كما في الأمثال التالية: "من صام ولا صلى/ راح النار يتقلى"، "الطول طول انخله/ والعقل عقل اصخله"، "اللي ما يسوقه مرضعه/ سوق العصا ما ينفعه".

ويرى بعض الدارسين الذين طبقوا المنهج البنائي في دراسة الأمثال أن هنالك مشكلة تنجم عن عزل تراكيب بنائية متضمنة في المثل. وهي ذات صلة فيما لو كان الدارس يحلل صورة المثل، أو رسالته، أو صيغته المعمارية[٤٤]. مثلاً، في حال استخدام أدوات التفضيل مثل أفضل أو خير، يختلف المثل القائل: "عدو عاقل خير من صديق جاهل" عن المثل: "وجه تصابحه ولا وجه

---

(٤٣) Ibid.

(٤٤) On the Structure of Proverb '.

تقابحه". من حيث إن المثل الأول هو تفضيل للشخص العاقل على الجاهل حتى لو كان عدواً، أما الثاني فهو تنفير من رؤية وجه قبيح.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الأمثال تختلف في الصورة، ولكنها تتفق في الرسالة المراد التعبير عنها. فالمثل القائل: "الميت ما تضرّه الطعنة"، له صيغتان مختلفتان، تقول إحداهما: "المبلل ما يخاف من المطر"(٤٥). أما الثانية فتقول: "أشو ينفع الضرب بالسخلة المذبوحة"(٤٦). وهكذا اتفقت الأمثال المذكورة في الدلالة وهي عدم المبالاة، واختلفت في أسلوب الصوغ.

ويوجد للمثل الكويتي القائل: "كل هم ولا هم الدين، وكل وجع ولا وجع العين"، نظائر تتفق معه في المعنى وتختلف في الصوغ. ففي مصر يقال: "الدين سواد الخدين". هنالك جناس ناقص بين دين وخدين. وفي العراق: "الدين هم ولو درهم" توجد قافية بين هم ودرهم. وفي فلسطين: "ما هم إلا هم العرس، ولا وجع إلا وجع الضرس"؛ يتضمن المثل قافية وجناساً ناقصاً بين عرس وضرس، وصيغ المثل على نسق بيت الشعر. وهكذا تتفق الأمثال المذكورة في الرسالة وهي أن الدين يشكل همّاً للمستدين يعدل ألم الجسد. ولكنها تختلف في أسلوب التعبير عن تلك الرسالة كل وفق تخيله للهم الذي يسببه الدين.

أما المثل الكويتي القائل: "نوخذاوين طبعوا مركب"، والدال على عدم التوافق فهو مستقى من البيئة البحرية(٤٧). ومع ذلك توجد له نظائر تتفق معه في الدلالة، وتختلف عنه في الصورة. ففي العراق يقال: "السفينة إذا كثرت ملاليحها تغرق". وفي اليمن "اثنين ما يمشي بهم مركب". أما في فلسطين فقد غايرت صورة المثل ما سبق ذكره، بالقول: "الطبخة من كثر طبابيخها تشيط".

---

(٤٥) من الأمثال الكويتية الدارجة. ص٦.

(٤٦) محمد علي، أبو حمدة. (١٩٦٩). من تراثنا. الأمثال العامية الفلسطينية. مكتبة عمان. ص٤٩.

(٤٧) نوخذاوين كلمة عامية هي مثنى كلمة نوخذا. وتعني ربان السفينة.

وفي مصر يقال: "الإبرة اللي فيها خيطين ما تخيطش". أما في ليبيا فيستعيد المثل صورته الأصلية، ولكن بلهجة محلية "المركب ما تمشيش بزوز ريّاس"(٤٨). وهكذا نرى أن بعض الأمثال المذكورة اتفق مع المثل الكويتي في الصورة، واختلف عنه في لغة الصوغ. أما البعض الآخر فقد اختلف في الصورة والصوغ. ولكن اتفقت جميع النماذج في مضرب المثل، وحافظت على معناه الدلالي. (كمال. الأمثال الكويتية المقارنة. الجزء ٤. ص٤٦٨).

وهكذا نجد أن أكثر سمات الأمثال وضوحاً يتمحور حول كونها موجزة، وذات تركيب مزدوج. وإن هذا المعيار يؤثر تأثيراً واضحاً في المعنى. من حيث إن المثل هو وصف مكون من عنصرين أو أكثر. وهذه العناصر غالباً ما تتسق مع تركيبة المثل المكون من جزأين متوازيين يرتبط أحدهما بالآخر إما بفعل التوازي، وإما بفعل السببية(٤٩). والتوازي إما يكون إيجابياً وإما سلبياً؛ "في التأني السلامة، وفي العجلة الندامة"، "الطويلة تقضي حاجتها، والقصيرة تنادي جارتها"، "العلم نور، والجهل ظلام".

أما السببية، فهي أيضاً إما أن تكون إيجابية: "الفلوس تجيب العروس"، "طيحة السلامة لها علامة"، وإما أن تكون سببية سلبية: "الطوفة الهبيطة كل ينطها"، "السمكة الخايسة تخيس السمك".

٦ – المجاز في الأمثال Metaphor:

الأمثال – كما ذكرنا من قبل – إما أن تكون مباشرة، وإما أن تكون مجازية. يقول مايدر: إن تفضيل الأمثال ذات المعنى المجازي يكمن في حقيقة كونها رمزية وغير مباشرة. ويستطرد قائلاً: إن أغلب أنواع الأدب الشعبي ذات طبيعة دلالية غير مباشرة. وتبدو أهمية ذلك في الجمع بين حالة واقعية ومثل مجازي. والغاية من ذلك هي إضفاء سمة التجريد على المثل بالانتقال من الخاص إلى

(٤٨) زوز باللهجة الليبية تعني زوج. وريّاس تعني رئيسين.

(٤٩) Proverbs and Proverbial Expressions.

العام[٥٠]. ويتمثل مايدر بالمثل الإنجليزي؛ Birds of feather flock together الذي يناظره المثل العربي؛ "الطيور على أشكالها تقع". ويرمز كلا المثلين إلى التوافق.

وينبغي أن نلاحظ أن المواءمة بين موقف واقعي ومثل مجازي تضفي على المثل صفة العمومية، وتجعل حدوثه في الحياة اليومية أمراً وارداً ومسلماً به. مثلاً بدلاً من توجيه لوم مباشر لشخص ما خالف العرف المتبع في السلوك الاجتماعي، يمكن طرح المثل التالي: "إذا كنت في قوم فاحلب في إنائهم". وفي موقف آخر بدلاً من تقديم شرح مستفيض عن قيمة الوقت، وأهمية استغلاله، يذكر مثل يدل على ذلك وهو: "اضرب ما دام الحديد حامياً". يقول الشاعر:

اضرب حديداً حامياً لا نفع فيه إن برد

ويشرح المثل المذكور الموقف شرحاً مجازياً، ولكن بلغة بليغة تشتمل على حكمة تراثية متأصلة في الوجدان الجمعي.

ومن الأمثال المجازية تلك التي لا تشكل في الغالب جملة كاملة. وتعتمد في صوغها على عبارات فعلية تتخذ صيغة المصدر، مثل: "أيده بالدسم"، كناية عن الغنى. أو تصاغ على هيئة مقارنات تشبيهية، من مثل: "مثل القطو بو سبع أرواح"، كناية عن المقاومة؛ "مثل بيض الصعو ينذكر ولا ينشاف"، كناية عن الاختباء. وهذا النوع من الأمثال غالباً ما ينطوي على مبالغات ساخرة. وبعض هذه الأمثال يتخذ شكل عبارة من دون فعل. ويقوم على حذف كلمات والاستدلال عليها بالمعنى ellipses؛ "فوق النخل"، كناية عن السعادة والنجاح، "جنّي وعطبة "، كناية عن عدم التوافق. ويتخذ بعضها شكل تشبيهات أو مقارنات تأتي بعد أداة تشبيه كما في المثل القائل: "مثل الأطرش بالزفّة"، كناية عن عدم السماع، أو "أكثر من الهم على القلب"، كناية عن الوفرة. مع استخدام أداة التفضيل أكثر. وتشكل بعض الأمثال وصفاً مجازياً لحدث يصور على أنه حقيقة عامة مثل المثل القائل: "يا ماشي بدرب الزلق لا تامن الطيحة". ويعني

(٥٠) Proverbs, A Handbook.Introduction.

المخاطرة. وتدل بعض الأمثال على تشخيص مثل: "الجوعان ياكل تراب"، كناية عن الاضطرار. وتتضمن بعض الأمثال ظاهرات تاريخية أو دينية في دعوة إلى التأني، كما في المثل المذكور آنفاً: "مكة لم تبن بيوم". وترد أمثال عالمية سبق ذكرها، وهي تناظر هذا المثل مع تغير المكان. وتشير بعض الأمثال إلى معتقدات أو علامات خاصة بالجو مثل: "لي دلق سهيل لا تامن السيل". وهو تحذير من نزول مطر غزير في فصل الخريف لدى ظهور نجم سهيل. ويدعو بعض الأمثال إلى التواكل والتسليم بالقدر مثل: "لي طاعك الزمان والا طيعه". وتتسم بعض الأمثال ببناء مجازي قياسي ومنطقي، وتدل على حكمة وتقرير واقع، مثل: "من شب على شيء شاب عليه". وفي المثل جناس استهلالي ناقص.

٧ – تغيرات المثل variants:

المثل، كما غيره من أنواع الأدب الشعبي، له تغيرات نصية تتنوع وفق انتشاره الجغرافي وبعده التاريخي. وبموجب النظرية البنائية، إن ما يعنينا ليس اختلاف صياغات المثل، بل مضمونه؛ إذ إن اختلاف الأمثال ذات الدلالة الواحدة في الشكل لا يعني بالضرورة اختلافاً موازياً في بنائها الضمني. المثل الكويتي: "جرادة بإيدك ولا عشرة طايرين"، الذي يعني القناعة، له نظائر في التراث العربي والعالمي تؤكد وحدة الفكر الإنساني. كما في المثل العربي المعروف: "عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة". ويشيع هذا المثل في ثقافات أخرى بالمعنى نفسه، ولكن بصيغ مختلفة؛ إما في نوع الطائر، وإما في عدد الطيور، أو مكان وجودها. ففي المثل الإنجليزي: "طير في اليد يساوي اثنين في الحقل"، لم يحدد المثل نوع الطائر، واختلف عن المثل العربي في عدد الطيور ومكان وجودها. ولا يختلف المثل الإسباني: "طير في اليد أفضل من مئة طائرين"، عن المثل الإنجليزي في عدم ذكر نوع الطائر، واختلف عنه في كون المكان مطلقاً. أما المثل الفارسي: "عصفور في اليد خير من صقر في الجو"، فيتفق مع المثل العربي في نوع الطائر وهو العصفور، ويضيف إليه طائراً آخر وهو الصقر، على سبيل المفاضلة. ويتفق المثل الألماني: "عصفور في اليد خير من حمامة على السطح"، مع المثلين العربي والفارسي في ذكر العصفور وتحديد مكانه، ولكنه يختلف

عنهما في ذكر طائر آخر أفضل من العصفور وهو الحمامة. ويحدد مكانها على السطح. أما المثل الكويتي، فقد اختلف عن الأمثال المذكورة في نوع الطائر وهو الجرادة، واتفق مع المثل العربي في مكان وجودها وهو اليد، وعدد الجراد الطائر مع عدم تحديد مكانه. ونلاحظ في الأمثال المذكورة استخدام صيغتي التفضيل: أفضل وخير، علاوة على تفضيل الصغير المضمون على الكبير المطلق.

وتسترعي هذه الظاهرة انتباه بعض الدارسين ممن اعتنوا بدراسة الأمثال من الناحية اللغوية، منهم داندس الذي يقول: إن التوافق والتعارض ممكن أن يحدثا في المثل الواحد، وإن هذه السمة هي ظاهرة عالمية. ويستطرد داندس قائلاً: إن من الممكن الاستدلال على ذلك باشتمال المثل على مفردات متعارضة مثل: واحد اثنين، قليل كثير، بعيد قريب، صغير كبير، سهل صعب، أسود أبيض، جيد رديء، وهكذا. ويؤكد داندس أنه ليس شرطاً أن يكون اثنان أفضل من واحد، أو كثير أفضل من قليل، أو الأكثر قيمة أحسن من قليل القيمة، ما دام القليل متوافراً ومضموناً، والكثير غير مضمون[٥١]، ولا أدل على ذلك من المثل القائل: "عصفور في اليد"، الذي استعرضناه آنفاً مع عدد من تغيراته النصية. وعلى الرغم من ذلك لا ينبغي أن يتخذ هذا الأمر على أنه قاعدة عامة في الأمثال؛ إذ إنه في بعض الأحيان يكون اثنان أفضل من واحد، كما في المثل العربي: "رأيان أفضل من رأي". ومع ذلك يفتقر المثل المذكور إلى وجود المجاز، كما في الأمثال المذكورة سابقاً.

وتبدو المقارنة بين الصغير والكبير في نموذج آخر للمثل، يتضح من خلاله التعارض بين السبب والأثر أو الحجم والأثر، كما المثل الذي أورده (شهاب الدين الأبشيهي: ٧٩٠–٨٥٠ للهجرة): "نواية تسند الجرة قال وتسند الزير الكبير"[٥٢]، الذي لا يزال متداولاً في مصر مع اختزال كلماته ليصبح:

---

(٥١) On the Structure of Proverb'.

(٥٢) الأبشيهي، شهاب الدين محمد أحمد. (دون تاريخ). المستطرف في كل فن مستظرف. المكتب العالمي للبحوث. بيروت. ص٥٩.

"نواية تسند الزير". ويضرب المثل في عدم الاستهانة بالأمور الصغيرة التي ربما تكون ذات تأثير واضح ومفيد. ويشبه هذا المثل شطراً من بيت شعر يقول:

كل الحوادث مبداها من النظر عظائم النار من مستصغر الشرر

ويتضمن المثل المذكور مجازاً وتعارضاً ثنائياً من خلال المقارنة بين الصغير والكبير.

ومن الأمثال التي تجمع بين التوافق والتعارض المثل القائل: "اللي ماله أول ماله تالي"؛ حيث يتمثل التوافق في كلمتي ما له، فيما يبدو التعارض بين أول / تالي. ويضرب المثل في الوفاء أو عدمه. كذلك المثل القائل: "مصائب قوم عند قوم فوائد"؛ إذ يكون التوافق بين قوم/قوم والتعارض بين مصائب / فوائد.

ومن الأمثال المتضمنة ثنائيات متعارضة: "صديقك يقول: قلت لك، وعدوك يقول: بغيت أقول لك"، وكذلك "عافها عزيمة، وجاها دناعة". وتعني التطفل على الطعام. ومن الأمثال المختلفة لفظاً والشبيهة معنى المثل القائل: "إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب". ويشبهه مثل شائع في التراث الكويتي يقول: "من كثر هذره قل قدره". ويحتوي المثل على سجع وتعارض في المعنى بين كثر هذره/ قل قدره؛ حيث إن كثر الحديث يقلل من قيمة الإنسان. ويدل النموذجان على أن بعض الأمثال المصوغة بالفصحى يوجد لها نظائر باللهجة المحكية. ويتضح التعارض الثنائي في المثل: "عتيج الصوف ولا يديد البريسم". ويبدو التعارض بين عتيق/ جديد، الصوف/ البريسم. وتستخدم أداة النفي (لا) بدلاً من أداة التفضيل، للدلالة على قيمة الصوف ولو كان قديماً، وتفضيله على البريسم وهو أرق أنواع الحرير، حتى وإن كان جديداً. وذلك لمتانة الصوف وقدرته على التحمل، وعدم قدرة البريسم الرقيق على ذلك. وفي المثل القائل: "لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد" حث على سرعة الإنجاز، وتنفير من التقاعس. ويدل المثل: "خير تعمل شر تلقى" على تجربة ذاتية انتقلت بفعل التجريد من الخاص إلى العام لتغدو حقيقة مطلقة. ويشير استخدام الكلمات المتعارضة، خير/ شر، تعمل / تلقى، إلى التعارض بين عمل الخير، وتلقي الشر

جزاء على ذلك العمل. وعلى عكس الأمثال المذكورة، لا يدل المثل القائل: "أول من يطيع وآخر من يعصي" على تعارض ثنائي، على الرغم من صياغته بصورة توهم السامع بوجود ذلك التعارض فيما بين أول/آخر، يطيع /يعصي.

وتشتمل بعض الأمثال على تعارض ضمني غير ظاهر يكمن في معنى المثل. ففي المثل الكويتي القائل: "من طوّل الغيبات جاب الغنايم"، يتضمن المثل تعارضاً معنوياً بين الغياب والعودة تتمثل في طول الغيبات/ جاب الغنايم. وللمثل دلالتان؛ دلالة خاصة بماضي الكويت، وغياب البحارة عن الوطن في رحلات بحرية طويلة يتوقع منها أن تنتهي بتحقيق أرباح مادية تفي باحتياجات البلد والأسرة. ودلالة عربية تراثية من حيث إن القبائل العربية كانت تشتبك في غزوات وحروب فيما بينها، والقبيلة المنتصرة تستحوذ على ممتلكات القبيلة المغلوبة المسماة غنائم حرب. ويجاوز الأمر الاستحواذ على الممتلكات المادية إلى استلاب النساء والعبيد. وبعد ظهور الإسلام قام المسلمون بغزوات كثيرة داخل الجزيرة العربية وخارجها لنشر الدين الإسلامي، وفي حال تحقق النصر بعد معارك طويلة كانوا يعودون بالغنائم الوفيرة.

ويرد التقابل الثنائي المعنوي أو الضمني في الأمثال التي تتضمن مقارنة بين الغني والفقير، والقوي والضعيف، كما في المثل القائل: "السمك يأكل بعضه"[٥٣]، الذي يتردد بصورة أخرى هي "السمك الكبير يأكل السمك الصغير". نلاحظ أن المثل المذكور يحمل دلالة واضحة على أن السمك الكبير الأقوى يأكل السمك الصغير الأضعف. ويرمز المثل إلى نزعة الإنسان التسلطية، وممارسة قوته ضد الضعيف. ويشير تحديداً إلى ثنائية السمكة والدولة، وعلى مفهوم الظلم والممارسات القمعية والدكتاتورية. وما ينجم عن ذلك من اضطهاد وقتل وتشريد. ويمكن تطبيق المثل في مجال الأعمال من حيث إن الشركات

(٥٣) تيمور باشا، أحمد. (١٩٨٦). الأمثال العامية. مركز الأهرام للترجمة والنشر. الطبعة الرابعة. ص ٢٤٦.

الكبرى تفترس الأخرى الصغرى. وكذلك الدول الكبرى تفرض سيطرتها على الدول الصغرى. فإذا ما حاولت الصغرى الخروج عن سيطرة الكبرى افترستها ومحتها من الوجود. وفي المثل العربي: "في الاتحاد قوة"، تبدو أهمية تكاتف السمك الصغير للوقوف في وجه السمكة الكبيرة، وصد اعتدائها. ولكن تتكرر المشكلة بظهور سمكة من بين المجموعة تفرض سيطرتها على تلك المجموعة. ويعد هذا المثل أكثر الأمثال تعبيراً عن نزعة المرء الاستبدادية في المجتمعات البشرية. وهذا يجعل المثل صالحاً لكل زمان ومكان، ليس بدلالته الأصلية المباشرة، ولكن باستخدامه قناعاً مجازياً، للتعبير عن الطبيعة البشرية(٥٤).

ونلفت النظر إلى أن التعارض في الأمثال لا يقتصر على المثل الواحد، بل تعكس بعض الأمثال معاني متعارضة تدل على حالة القائل النفسية، وتتردد في آن واحد. وهذا يبين لنا أن المثل لا يفسر وفق معناه المطلق بل بمدى تعبيره عن مواقف تختلف باختلاف مناسبة أدائه، ووفق الغاية التي يصبو إليها القائل. إن تقييم المواقف لا يعتمد على أسلوب واحد بل تتعدد أساليب التقييم تبعاً للأفراد والمجتمعات. لذلك يكون التناقض المعنوي في الأمثال انعكاساً لإحساس الشخص في اللحظة التي ينتقي فيها المثل المعبر عن ذلك الإحساس. ويتبين لنا ذلك باستعراض بعض الأمثال المتناقضة مثل: "من غاب عن عيني سلا عنه بالي". وهو يناقض في معناه المثل الذي يقول: "لي بغيت تصير عزيز موت والا تغيّب". وكذلك المثل الداعي إلى الإسراف: "اصرف ما في الجيب، يأتيك ما في الغيب". وهو يتعارض مع المثل الذي يحث على التوفير: "القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود". حيث تدل المفارقة بين اللونين الأبيض والأسود على الرخاء والضنك. وإن النقود البيضاء المدخرة تنفع في تخفيف عناء الأيام الصعبة. على حين إن المثل الأول يدعو إلى التمتع بالمال والاتكال على الله – سبحانه وتعالى – في

(٥٤) ذكر مايدر مثلاً إنجليزياً شبيهاً بهذا المثل يقول: السمكة الكبيرة تأكل السمك الصغير. ويدل على ثنائية السمكة والدولة Proverbs A Handbook 38-43.

توفير الرزق. ويتردد مثل آخر يدل على الإسراف هو: "اللي تجيبه اليمين توديه الشمال". ويكمن التعارض بين تجيبه/توديه، يمين/ شمال. ويؤكد لنا هذا أن الأمثال لا تصاغ وفق نظام فلسفي ومنطقي ثابتين، بل هي تتغير تبعاً لتغير الموقف الذي يراد التعبير عنه. إن انتقاء مثل معين للتعبير عن حالة ما يفرض على القائل أن يراعي تناسب المثل مع تلك الحالة كي يصبح صيغة إستراتيجية مؤثرة في التفاعل الاجتماعي. وهذا ما يجعل دراسة الأمثال مدخلاً مهماً لدراسة المجتمع.

وفي بعض الأحيان تتعدد قراءة المثل وفق إمكانات اللغة والمحيط الاجتماعي. ويدل على ذلك المثل الإنجليزي القائل؛A friend in need is a friend indeed. وترجمته العربية هي، الصديق الحق هو الصديق وقت الحاجة. ويقابله بالعربية: "الصديق عند الضيق". وبموجب بعض الدارسين يمكن أن تختلف قراءة هذا المثل تبعاً لتغير كلماته ضمن سياق النص ليصبح: A friend in need is a friend in deed. ومعناه الصديق الحق هو صديق ذو مأثرة(٥٥). ومن الناحية اللغوية يمكن أن يفسر ذلك على أساس الاحتمال في تقدير المفصل أو الوصل juncture من حيث الاتساع أو الضيق؛ مما يؤدي إلى دمج كلمتين في واحدة، أو تجزئة الكلمة الواحدة. بالإضافة إلى النبر stress، ودرجة الصوت tone of voice، والتناسب الدلالي semantic fit. كل هذه الأمور تعد ضرورية للتمييز بين الكلمتين(٥٦). ولا شك أن هذا الاتجاه في دراسة الأمثال قد تأثر بمفاهيم علم التعبير التي أشرنا إليها في مستهل البحث.

ويقرر بيتر سيتل Peter Seitel أن تفسير المثل، يعتمد في المقام الأول على محيطه الطبيعي؛ ذلك أن عدداً من الأمثال الشائعة لها معان مختلفة تظهر فقط في مواقف معينة، وإن موقفاً محدداً فحسب يبين لنا ماذا يريد مثل معين أن يقول في محيط اجتماعي معين، وهذا يؤكد لنا اختلاف دلالات الألفاظ في

(٥٥) Barbara.Kirshenblatt-Gimblett.' Toward a Theory of Proverb Meaning'., The Wisdom of Many.pp111-121.

(٥٦) Ibid.

الأمثال تبعاً لمواقعها المتغايرة، ووظائفها المتعددة، ومغزاها اللفظي. وعلى ذلك فالمثل ينبغي أن يفسر في ظل محيطه الخاص سواء أكان اجتماعياً أم أدبياً أم إعلامياً، مع الالتفات إلى طبيعة تركيبته البلاغية والسيميائية المائزة(٥٧).

٨ – التغير والثبات في الأمثال:

لقد أكد الدارسون في الماضي ثبات شكل المثل، ولكن من الصعب أن يحتفظ المثل بصيغته التركيبية الثابتة في حال ترجمته إلى لغة أخرى. وهو ما عناه داندس ببنية المثل أو تركيبته النسيجية texture. ونستخلص من ذلك سمة مهمة من سمات الفولكلور عامة والأمثال خاصة، وهي سمة الثبات والتغير Constance and variability. ما المكونات التي تتغير؟ وما المكونات الثابتة في المثل بصفته نوعاً تراثياً؟. والواقع أن نواة المثل هي الجزء الثابت، على حين إن التفاصيل البعيدة عن الجوهر تكون عرضة للتغير. وبالرجوع إلى التحليل البنائي لا يمكن أن يحتفظ المثل بشكله التركيبي فيما لو ترجم إلى لغة أخرى. مثلاً المثل العربي المصوغ على هيئة بيت شعر يقول:

ويعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

يوجد له نظير باللغة الإنجليزية هو، deeds not words. ولكن الشبه بين المثلين يكون في المعنى وليس في تركيب الكلمات. وهذا ما عناه داندس في قوله: إن ترجمة الأمثال لا تكون بتركيبها النسيجي ولكن بمعناها العام. ومع ذلك فثمة وجه شبه صياغي بين بعض الأمثال إلى درجة قريبة من التطابق مع اختلاف اللغة. مثلاً في المثل العربي آنف الذكر: "إن غاب القط العب يا فار"، له نظير باللغة الإنجليزية هو: when the cat is away,the mice play.

وباستعراض الأمثال الكويتية يتضح لنا أن التغيرات التي تطرأ على المثل لا تقتصر على تنوع مضمونه باختلاف البيئات التي يتردد فيها فحسب، بل تتغير أحياناً أساليب صوغه للدلالة على معنى واحد. ولقد برهنا على ذلك في

(٥٧) Peter. Seitel., 'Proverbs: A Social Use of Metaphor., Genre, 2(1969)., 143-161.

معرض الحديث عن تغير صورة المثل الدال على معنى واحد. وفي هذا الصدد ينبغي علينا أن نشير إلى اعتناء صفوت كمال في دراسته المقارنة للأمثال الكويتية، بتتبع الأمثال الشبيهة في مضاربها، والمختلفة في صوغها.

وفي ختام البحث لا بد لنا من الإشارة إلى أن بعض الدارسين لا يفترض أصلاً مشتركاً للأمثال النظيرة، بل يؤكد كون بعضها ذا نشأة مستقلة. وإن الشبه الذي يجمع بينها لهو تعبير عن تماثل الرؤية الكونية بين المجتمعات، أكثر من كونه دليلاً على عراقة الأمثال التاريخية أو انتشارها الجغرافي. فالمثل التركي "بيضة اليوم أفضل من بطة الغد"، واللاتيني "ساعة اليوم تساوي ساعتين غداً"، والصربي "رغيف شعير اليوم أفضل من كيك الغد"، تتفق في رسالتها مع المثل الخاص بالعصفور، الذي سبق تناوله في معرض الحديث عن تغيرات المثل، ولكنها تختلف عنه في الصورة. وعلى ذلك لا يمكن القطع بأن هذه الأمثال تشكل تغيرات نصية للمثل(٥٨).

خلاصة:

في ضوء ما سبق نخلص إلى أن الأمثال هي ظاهرة لغوية تتشكل وفق منظومة الأصوات والأوزان والإيقاعات. وإن أكثر سمات الأمثال وضوحاً يتمحور حول كونها موجزة، وذات تراكيب مزدوجة.

وتتأسس قيمة الأمثال، وتداولها في المجتمع على تأثيرها البلاغي شكلاً ووظيفة. ويتضح ذلك من خلال عاملين مهمين؛ يتصل الأول منهما بمرونة محيط المثل الاجتماعي؛ من حيث إن كثيراً من الأمثال يبدو في شكله التعبيري الظاهر مرتبطاً بثقافة معينة. ومع ذلك تتسع رقعة تداوله إلى مدى بعيد، لينتقل من المحلية إلى العالمية، وتجاوز وظيفته نطاق التجربة الخاصة إلى العمومية والتجريد، ليصبح صالحاً لكل زمان ومكان. العامل الثاني هو استخدام الأمثال ذات المعاني المتقابلة. وعلى الرغم من أن النظرة الأولى للمثل توحي بأن ذلك

(٥٨) Funks and Wagnalls. Standard Dictionary of Folklore, Mythology and Legend., Maria Leach Ed. New York., 1972., p 903.

التقابل يعكس حالة من التضارب، فإن دلالته تحقق درجة عالية من التوافق، من حيث إنها تقدم حلولاً مثلى لنوازع الإنسان المتعارضة.

ويمكن أن تعزى أسباب التناقض في الأمثال إلى التالي:

أولاً: الأمثال تعبير عن معانٍ نسبية أكثر منها معاني مطلقة.

ثانياً: يتشكل معنى المثل ودلالته تبعاً لمحيطه الاجتماعي والثقافي وحالة قائله النفسية؛ إذ إن المثل المناسب من حيث الدلالة اللفظية ليس من الضروري أن يكون مناسباً للغاية التي يقصدها قائل المثل.

ثالثاً: لا يفسر المثل وفق معناه المطلق، بل بمدى تعبيره عن مواقف تختلف باختلاف مناسبة أدائه، ووفق الغاية التي يصبو إليها القائل. علاوة على أن تقييم المواقف لا يعتمد على أسلوب واحد، بل تتعدد أساليب التقييم تبعاً للأفراد والمجتمعات.

رابعاً: لا يقع التعارض في الأمثال المكونة من جملة واحدة، ولكن تجمع بعض الأمثال المؤلفة من جملتين بين التوافق والتقابل؛ حيث تتخذ هيئة ثنائيات متقابلة في المثل الواحد. وهناك نوع من التقابل، يقع بين مثلين يتناولان موضوعاً واحداً تتعارض فيه وجهتا النظر.